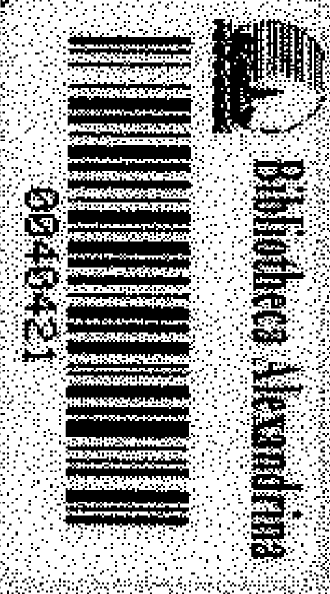
كتابك

١٤٠م

فؤاد كامل

الشخصية بين الحرية والعبودية



اقرأ ١٤٠م
رئيس التحرير أنيس منصور

فؤاد كامل

الشخصية بين الحرية والعبودية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

رأى فى الشخصية

هذا رأى الفيلسوف المعاصر « نيقولا بردياثف »[1] فى الشخصية .. أحببت أن أطلع عليه القارئ العربى لأصالته وطرافته وعمقه فى آن واحد . فهذا الفيلسوف الوجودى المتصوف يجعل من الشخصية الإنسانية محوراً لفلسفته ، ويضفى عليها من القيمة ما يذكرنا بجوهر النظرة الإسلامية إلى الإنسان ، أعنى بوصفه خليفة الله على الأرض . وقد عرض « بردياثف » رأيه هذا فى الشخصية فى كتابه القيم : « العبودية والحرية » . وفيما يلى ملخص هذا الرأى :

---

(١) نيقولا ألكسندر وفيتش بردياثف (كييف ١٨٧٤ - كلامار ١٩٤٨) أشهر الفلاسفة الروس المحدثين . كان أستاذاً لفلسفة اللغة فى جامعة موسكو (١٩٢٠) ، ولكنه اختلف مع الحكومة السوفيتية من حيث العقيدة السياسية والدينية ، فأصدرت حكمها بنفيه (١٩٢٢) مع مائة من المفكرين الآخرين ، وأقام منذ ذلك الحين بضاحية كلامار على مقربة من باريس حتى وافته منيته . وقد ترك بردياثف تراثاً ضخماً من المؤلفات الفلسفية ، ترجم معظمها إلى لغات عديدة . ومن أهمها « الذاتية والمثالية فى الفلسفة الاجتماعية » و « من وجهة نظر الخلود » « الوعى الدينى الجديد والمجتمع » و « فلسفة الحرية » و « تصور دوستويفسكى للعالم » و « معنى التاريخ » و « عصور وسطى جديدة » و « مصير الإنسان » و « العبودية والحرية » ..... الخ . ونقل كاتب هذا المقال إلى العربية ثلاثة من كتبه هى : « العزلة والمجتمع » و « الحلم والواقع » و « أصل الشيوعية الروسية » . وفلسفة بردياثف دينية فى جوهرها ، وهى تأمل لتجربة فردية فى ضوء الإيمان المسيحى .

لغز الإنسان :

الإنسان فى هذا العالم لغز ، بل لعله اللغز الأكبر ! وليس الإنسان لغزًا لأنه حيوان اجتماعى ، أو بمعنى آخر لأنه جزء من الطبيعة وعضو فى مجتمع ، بل هو لغز لأنه شخص ، ولأنه يمتلك شخصية . فالعالم كله ليس شيئًا إذا قورن بالشخصية الإنسانية ، وبشخص الإنسان الفريد ، ومصيره المتفرد . الإنسان يعيش فى كَبَدَ ، ويتحرق إلى معرفة نفسه ، من أين جاء ، وإلى أين هو ذاهب . ويستطيع الإنسان أن يعرف نفسه من أعلى أو من أسفل ، من نوره الخاص ، من المبدأ الإلهى الكامن فى طبيعته ، أو من ظلامه الخاص ، من مبدأ اللا شعور الأولى الشيطانى المستقر فى أعماقه . وهو يستطيع أن يفعل ذلك لأنه كائن مزدوج متناقض ، فهو شبيه الإله ، وشبيه الحيوان ، يسمو إلى الذُّرا وينحط إلى الحضيض ، حر ومستعبد ، قادر على أسمى أنواع الحب والتضحيات ، ولكنه خليق فى الوقت نفسه بارتكاب أبشع ضروب القسوة والعنف والأنانية .

إزدواج متناقض :

وقد أدرك كلٌّ من « دوستويفسكى » و « كيركجورد » و « نيتشه » هذا الطابع المأساوى الفاجع فى الإنسان ، وهذا التناقض فى طبيعته

إدراكاً حاداً متميزًا ، وسبقهم « بسكال » إلى التعبير عن هذا الازدواج في الإنسان تعبيرًا صادقاً مؤثرًا . وإذا كان بعض المفكرين قد نظروا إلى الإنسان بوصفه كائناً ساقطاً تتحكم فيه القوى الأولية ، وتحركه المنافع المادية ، والدوافع الحسية اللا شعورية ، فإنّ عدداً آخر من المفكرين قد شهد للإنسان بأنه يتعذب من جرّاء هذه السقطة ، وبأنه يريد أن يكفّر عنها ، ويرتفع فوقها . ووعي الإنسان بشخصيته هو الذي يتحدث عن طبيعته التواقة إلى الصعود ، وعن رسالته السامية .الشخصية دليل على أن العالم ليس مكتفياً بذاته ، وأن في الإمكان التغلب عليه وتجاوزه . وعندما يدخل الشخص الإنساني العالم ، وعندما تظهر الشخصية الإنسانية الفريدة التي لا تتكرر ، ينقطع مجرى التاريخ ، ويُرغم على تغيير مساره ، وإن لم تظهر على ذلك علامة في الخارج .

فالإنسان ، الإنسان الوحيد الذي تعرفه علوم البيولوجيا والاجتماع ، الإنسان بوصفه كائناً طبيعياً واجتماعياً — هو نتاج هذا العالم والعمليات التي تجرى فيه . ولكنه بوصفه شخصية ، لا يعد وليد هذا العالم ، بل ينحدر حين ذاك من أصل آخر ، وسلالة أخرى . وهذا ما يجعل الإنسان لغزًا ، لأن الشخصية ولوج واقتحام ، ادخال شيء جديد في هذا العالم .

والإنسان لا يكون شخصية لأنه يمت إلى الطبيعة بنسب ، بل هو بالروح شخصية ، وبالطبيعة فرداً Individual . وليست الشخصية

« ذرة روحية » (موناد Monad) تندرج تحت فئات متصاعدة من « المونادات » وتخضع لها ، وإنما الشخصية « كون مصغر » (ميكروكوسموس Microcosmos) ، كون كامل . ولا يمكن أن تكون جزءًا فى علاقة مع كلٍّ من أى نوع آخر ، أيًّا كانت ضخامته ، حتى لو كان هذا الكل هو الكون بأسره . هذا هو المبدأ الأساسى فى الشخصية ، وهذا هو سرها . و « الموناد » مغلقة موصدة ، لا أبواب فيها ولا نوافذ ، أما الشخصية فتنفتح اللا نهاية أمامها ، وهى تدخل اللا نهاية ، وتحتضن اللا نهاية ، وفى اكتشافها لذاتها تتجه صوب مضمون لامتناه .

بيد أن الشخصية تفترض فى الوقت نفسه شكلا وحدودًا ، فهى لا تمتزج بالبيئة المحيطة بها ولا تذوب فى العالم من حولها . الشخصية هى الكلى فى شكل فردى لا يتكرر . هى اتحاد الكلى اللا متناهى فى الفردى الجزئى . وفى هذا التناقض الظاهرى تقوم الشخصية . فالشخصى فى الإنسان هو ذلك الذى لا يشترك فيه مع الآخرين ، بيد أن هذا الذى لا يشارك الآخرين فيه يتضمن إمكانية وجود الكلى بالقوة . الشخصية ليست جزءًا من الكون ، وإنما الكون جزء من الشخصية ، صفة من صفاتها ، وخاصية من خصائصها .

الشخصية هى اللا متغير فى التغير ، وهى الوحدة فى المتعدد . وأنه لما يثير دهشتنا حقًّا أن نجد اللا متغير فى الإنسان دون أن نجد التغير ، أو أن نجد التغير دون أن نجد اللا متغير ، أو حين نجد الوحدة دون أن نجد

التعدد ، أو التعدد دون الوحدة . ففى كلتا الحالتين تتبدى صفة الشخصية الجوهرية ، وخاصيتها الأساسية . فليست الشخصية حالة متجمدة ثابتة ، بل هى تنمو وتتطور وتزداد ثراء ، ولكنه نمو وتطور وثراء ذاتٍ واحدة بعينها . وما يحدث من تغير فإنما يحدث للمحافظة على هذه الذات الثابتة اللا متغيرة .

البناء الذاتى المستمر للشخصية

والشخصية ليست بحال من الأحوال من المعطيات الجاهزة ، ولكنها وضع لسؤال ، وطرح لمشكلة ، هى المثل الأعلى للإنسان ، فالوحدة الكاملة التامة للشخصية مثل أعلى يصبو إليه الإنسان ويتوق إلى بلوغه . الشخصية تبنى نفسها دائماً وأبداً ، ولا يستطيع إنسان كائناً ما كان أن يقول عن نفسه إنه شخص بالتمام والكمال . بل على الشخصية أن تشيد نفسها وأن تثرى ذاتها ، وأن تمتلئ بمضمون كلى ، وأن تحقق الوحدة فى مدى عمرها . فهى ليست فى بداية الطريق ولكنها فى نهايته ، وهى ليست أجزاء يُضاف بعضها إلى البعض الآخر ، وهى ليست تركيباً أو تكويناً لكل ما من هذه الأجزاء ، وإنما تعنى بالأحرى الأفعال الخلاقة للشخصية ، بوصفها كُلاً متكاملا ، وهى حاضرة بوصفها كُلاً متكاملا فى كل فعل من أفعالها . فللشخصية شكل فريد غير متكرر هو ما يسمى بالجشطالت Gestalt . وربما كان علم نفس الجشطالت الذى يرى أن الشكل هو القيمة الكيفية الأولية – هو أقرب اتجاهات علم النفس إلى النزعة الشخصانية .

وانقسام شكل الشخصية لا يعنى بحال من الأحوال اختفاءها النهائى ، ذلك أن الشخصية شىء لا يناله التدمير أو الفناء . فهى تحيا

وفقاً لمصيرها الخاص ، وتستمد ينبوع قوتها من وجود يعلو عليها (هو وجود الله)

وفى كل شخصية إنسانية ثمة ما هو مشترك ، ما هو كلى ، وليس هذا هو الكلى الداخلى الذى تكتسبه الذاتى بفعل خلاّق لمضمون كيفى من مضامين الحياة ، ولكنه كلى خارجى . غير أن الشخصية — هذه الشخصية المتفردة — توجد بما لها من تعبير غير مشترك ، لا بأن لها عينين كالآخرين ، وبما فى هذين العينين من تعبير مشترك . وهناك فى الشخصية الإنسانية الكثير مما ينتسب إلى الجنس البشرى ، وينتمى إلى التاريخ والتراث والمجتمع والطبقة والأسرة ، الكثير مما هو وراثى تقليدى ، الكثير مما هو « مشترك » . بيد أن هذا بالذات هو ما ليس « شخصياً » فى الشخصية . أمّا ماهو « شخصى » فيتصف بالأصالة ويرتبط بالينبوع الأولى الحقيقى للوجود .

ينبغى أن تكون الشخصية هى « الاستثناء » . وكل ما هو نوعى ووراثى ما هو إلاّ مادة لنشاط الشخصية الخلاّق . وما تلقيه الطبيعة والمجتمع على الإنسان من أعباء وأحمال ثقال ، وما يحمّله إيّاه التاريخ والحضارة من مطالب ومهام جسام ، يتخذ هذا كله هيئة الصعوبات التى تتحدانا ، والتى تثير فينا روح المقاومة والعزم على تحويلها إلى ما هو شخصى ، أو استيعابها فى شخصيتنا بجهد خلاّق . فالشخصية فى

الإنسان هي الانتصار على ما تفرضه علينا الطبيعة والمجتمع والتاريخ والوراثة من تحديدات وقيود ، هي انتصار الحرية على العبودية ، انتصار على الذات وعلى العالم ... الشخصية بجهود وصراع وتحرر .

العقلانية والحرية

والشخصية كائن عقلانى ، بيد أنها لا تتحدد بالعقل وحده ، ذلك لأن العقل فى حد ذاته شىء لا شخصى ، لأنه كلى مشترك بين جميع الناس . وطبيعة الإنسان الأخلاقية والعقلية عند «كانت» طبيعة لا شخصية مشتركة . والفكر اليونانى حين فهم الإنسان على أنه كائن عاقل لم يقترب من الفلسفة الشخصانية ، فالشخصية ليست كائناً عقلانياً فحسب ، بل هى أيضاً كائن حر . الشخصية هى جماع تفكيرى ، وجماع شعورى ، وجماع إرادتى ، وجماع نشاطى الخلاق . أما العقل فى الفلسفة اليونانية ، وفى المثالية الألمانية فعقل لا شخصى ، عقل كلى . ولكن هناك أيضًا عقلى الشخصى ، وبالأخص إرادتى الشخصية . ولهذا لا يمكن أن تؤسس النزعة الشخصانية على المثالية ، سواء كانت أفلاطونية أو ألمانية ، كما لا يمكن أن تقوم على النزعة الطبيعية أو الفلسفة التطورية أو الحيوية ، وهى جميعاً فلسفات تذيب الشخصية فى عمليات لا شخصية أو كونية أو حيوية . وكان لماكس شيلر Max Scheler فضل تحديد الاختلاف بين الشخصية والكل العضوى organism ، وبين الوجود الروحى والوجود العضوى .

فالشخصية ليست مقولة بيولوجية أو نفسية ، ولكنها مقولة أخلاقية

روحية . ولا يمكن أن تتطابق الشخصية مع النفس ، لأن لها أساساً أوليًّا – لا شعوريًّا . والإنسان فى حياته اللا شعورية غارق فى خضم الحياة الأولية الهادرة العاصفة ، ولا يَخْضع للعقل إلاّ شطرٌ ضئيل منه ، ولابد من التمييز فيه بين « الأنا » العميق والأنا السطحى . وكثيرًا ما يبدى الإنسان للآخرين وللمجتمع « أناه » السطحى فحسب ، ذلك الأنا الذى يقدر على ضروب شتى من الاتصال Communication الخارجى ، ولكنه يُعْجز عن التواصل Communion . وقد اهتدى تولستوى إلى هذا المعنى اهتداءً بديعًا ، فهو يصور لنا دائماً حياة الإنسان المزدوجة : حياته الخارجية المتقلبة مع الظروف ، الزائفة غير الحقيقية التى تظهر فى علاقته بالمجتمع والدولة والمدنية ، وحياته الباطنية الحقيقة التى يواجه فيها الإنسان الواقعَ الأولى ، وأغوارَ الحياة . وعندما يتأمل « الأمير آندرو » فى رواية « الحرب والسلام » السماء المرصعة بالنجوم يحيا فى هذه اللحظة حياة أصدق من حياته حين يشتبك فى المناقشة فى أحد صالونات بطرسبرج . فالأنا السطحى المتحضِّر المتعقل الاجتماعى ليس هو الشخصية فى الإنسان ، بل ربما كان تشويهاً لصورة الإنسان ، قناعاً يخفى شخصيته . والإنسان يلعب دورًا فى الحياة ، وربما كان الدور الذى يلعبه ليس هو دوره الحقيقى ، بل وقد يكون الزيف والتزييف ضرورة مفروضة على الإنسان كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس . وهكذا يمكن أن يتخذ الإنسان المتمدن المتحضر صورة لا شخصية

تماماً ، فيصبح عبداً دون أن يفطن إلى ذلك .

وليست الشخصية جزءاً من المجتمع ، كما أنها ليست جزءاً من الجنس . فمشكلة الإنسان ، أعنى مشكلة الشخصية أعمق من مشكلة المجتمع وأشد أولية . والمذاهب الاجتماعية عن الإنسان خاطئة كلها ، لأنها لا تعرف إلا القشرة السطحية الموضوعية من الإنسان . والنظر إلى الأشياء من وجهة النظر الاجتماعية يقف عند الظاهر الخارجي للشخصية بوصفها جزءاً ثانوياً من المجتمع ، بل جزءاً شديد الضآلة إذ قيس بضخامة المجتمع ، ولهذا لا تستطيع إلا فلسفة وجودية — لا فلسفة اجتماعية أو بيولوجية — أن تضع مذهباً حقيقياً عن شخصية الإنسان .

والشخصية ذات ، وليست موضوعاً بين سائر الموضوعات ، وهى تضرب بجذورها فى النظام الباطن للوجود ، أعنى فى العالم الروحى ، عالم الحرية . أما المجتمع فيمكن النظر إليه كموضوع ، فهو من وجهة النظر الوجودية جزء من الشخصية ، وهو جانبها الاجتماعى ، كما أن الكون جزء من الشخصية ، هو جانبها الكونى . ليست الشخصية موضوعاً بين موضوعات ، أو شيئاً بين أشياء ، وإحالتها إلى موضوع أو شيء معناه موتها . وقد يقال إن الطبيعة والمجتمع يزودان الإنسان بالمادة التى يؤلف بها شخصيته . والواقع أن الشخصية تحرر من الاعتماد على الطبيعة ، ومن الاعتماد على المجتمع وعلى الدولة ، وهى تعارض كل تحديد من الخارج ، لأنها تحديد من الداخل دائماً . بل إن العلاقة بين

الله والشخصية ليست علاقة سببية ، وإنما تقوم هذه العلاقة خارج مجال التحديد ، وإنما تقوم داخل مجال الحرية . فالله ذات بالنسبة للشخصية ، ذات يمكن أن تنشأ بينه وبين الشخصية الإنسانية علاقات وجودية . أما كل ما يتحدد من الخارج ، وكل ما يقوم على قوة عالم الأشياء والموضوعات ، فهو غير شخصى ، هو اللا شخصى فى الإنسان . وكل ما يتحدد فى الأنا الإنسانى ينتسب إلى الماضى ، ويصبح لا شخصياً .

الشخصية والمستقبل

بيد أن الشخصية هي إخراج المستقبل إلى حيز الوجود ، وهي تتألف من أفعال خلاقة . ووجود الشخصية يفترض الحرية ، وسر الحرية هو سر الشخصية . وليست هذه الحرية هي حرية الإرادة بالمعنى الأولى الذي هو حرية الاختيار الذي يفترض التعقل . فقيمة الإنسان تكمن في الشخصية التي يضمها بين جوانحه ، والقيمة الإنسانية هي التحرر من العبودية ، بل هي التحرر من الفهم الذليل للحياة الدينية ، وللعلاقة بين الإنسان والله . فالله هو الضامن لحرية الشخصية من القوة المستعبدة للطبيعة والمجتمع ، لمملكة قيصر ولعالم الموضوعات . وهذا كله يتم في ملكوت الروح لا في عالم الموضوعات والأشياء ، ولا شيء من مقولات العالم الموضوعي يمكن أن تُنقل إلى هذه العلاقات الوجودية الباطنة .

والشخصية بوصفها مركزاً وجودياً تفترض القدرة على الشعور بالألم والفرح . وليس في العالم الموضوعي ، سواء كان أمة أو دولة أو مجتمعاً أو مؤسسة اجتماعية أو كنيسة ما يملك هذه القدرة . وهم يتحدثون عن آلام الجماهير بمعنى مجازي ، إذ لا يمكن وصف أية جماعة أو طائفة في عالم الموضوعات بأنها شخصية . والحقائق الجماعية قيم حقيقية ، ولكنها ليست

شخصيات حقيقية . وقد يسمح الإنسان بالكلام عن نفوس جماعية ، لا بالكلام عن شخصيات جماعية .

تحقيق الشخصية :

والحق أن الإنسان بطبعه يميل إلى تجسيد كل ما يحب وكل ما يثير شفقته ، من جمادات أو أفكار مجردة ، بيد أن هذه عملية شاعرية إن صح هذا التعبير ، ولكنها لا تعنى أن هذه التجسيدات شخصيات حقيقية . فليست الشخصية قادرة على معاناة الألم فحسب ، ولكنها الألم نفسه بمعنى من المعانى . فالنضال من أجل تحقيق الشخصية وبلورتها عملية أليمة محفوفة بالمكاره والمخاطر . وتحقيق الشخصية لذاتها يفترض المقاومة ، ويقتضى مصارعة القوى التى تستعبد الإنسان فى العالم ، ورفضًا للمطابقة مع العالم . أما الإحجام عن تكوين الشخصية ، والاستسلام للذوبان فى العالم المحيط فيمكن أن يخفف من العذاب والألم . وما أيسر أن يسلك الإنسان هذا السبيل ، فالاستسلام للعبودية يقلل الألم ، أما رفضها فيضاعفه . والألم فى العالم الإنسانى هو علامة مولد الشخصية . وكفاحها من أجل بلوغ طبيعتها الخاصة . وقيمة الإنسان ، أو قيمة الشخصية تقدر بقدرته على تحمل الآلام . وهذه القدرة على تحمل الآلام لا وجود لها فى الهيئات أو المؤسسات الجماعية ، أو فى القيم المثالية . فالشخصية الإنسانية إذن هى القيمة العليا ، وليست

المجتمع أو الهيئات الجماعية التى تنتمى إلى عالم الموضوعات كالمجتمع أو الأمة الدولة أو المدنية أو الكنيسة .

وترتبط الشخصية بالذاكرة ، وتتصل بمصير الإنسان كله ، وبتاريخ حياته كله ، ومن ثم فإن وجود الشخصية أمر عسير وأليم . وعلى الفلسفة الشخصانية أن تدرك أن الروح — التى هى منبع الشخصية —لا تعمم وإنما تنزع إلى التفريد إن صح هذا التعبير . "Spirit does not generalize but individualizes" وهذا معناه أنها لا تبدع عالماً من القيم المثالية المشتركة العالية على ما هو إنسانى ، وإنما تبدع عالماً من الشخصيات الذين يتميزون بمضمون كيفى . وانتصار المبدأ الروحى لا يعنى إخضاع الإنسان للكون ، بل يعنى الكشف عن الكون فى الشخصية . ولو أن إنساناً تخيل أنه وُهب أعظم المواهب من عقل وعبقرية وجمال وخير وقداسة ، ولكن مع إزالة المركز الوجودى فيه ، وزحزحة مركز الثقل فى الأنا إلى المبادئ الكيفية الكلية ، فكأنما أضفى الأنا كل هذه الصفات على كائن آخر ، ولاختفت حين ذاك وحدة الذات وتاريخها الحى ، ولم تعد الذاكرة حافظة للشخصية . وهنا يكمن زيف الفلسفة المثالية عن القيم وعن الوجود المثالى .

الإنسان هو الكائن الذى يتجاوز ويعلو على نفسه . وتحقيق الشخصية للإنسان هو هذا العلو المستمر على الذات . فالإنسان ينزع دائماً إلى الخروج من دائرة الذاتية المغلقة ، وهذه الحركة تتم دائماً فى اتجاهين

مختلفين متعارضين . فقد يتخذ الخروج من الشخصية طريق الإحالة الموضوعية Objectivization وهذا الطريق يؤدى إلى المجتمع بقوانين إلزامه الكلية . وفيه تتعرض الطبيعة الإنسانية للاغتراب والضياع فى عالم الموضوعات ، وينتهى الأمر بألا تعثر الشخصية على نفسها . أمّا الطريق الآخر للخروج من الذاتية فيكون من خلال عملية العلو ، ويكون بالعبور إلى ما يتجاوز الذات Transsubjective لا إلى ما هو موضوعى . وهذا السبيل يمتد فى أعماق الوجود ، ويتم فيه ذلك الالتقاء الوجودى بالله وبالآخرين ، وبالوجود الباطنى للعالم . وليس هو سبيل الاتصال الموضوعى ، بل سبيل التواصل الوجودى . ولا تبلغ الشخصية تحققها الكامل إلا فى هذا السبيل .

سمات الشخصية :

ولابد من إدراك هذا المعنى جيداً لكى نفهم العلاقة بين الشخصية وبين القيم العالية على الشخصية Superpersonal ، فالعلاقة بين الشخصية وبين القيم العالية عليها إما أن يتم فى مجال الإحالة إلى الموضوعية ، وهنا تنشأ فى يسر عبودية الإنسان ، أو يتم فى المجال الوجودى ، بعملية صعود وعلو ، وهنا تتولد الحياة مع الحرية . فالإحالة الموضوعية لا يمكن أن تكون تصاعداً وعلوّاً ، إذ فيها يجد الإنسان نفسه فى قبضة الحتمية ، وتحت سيطرة اللا شخص . أما فى العلو ، فيجد

الإنسان نفسه فى مجال الحرية ، والتقاء الإنسان بما يتجاوزه يكون له طابع شخصى ، وما هو عال على الشخصية لا يسحق الشخصية . وهذا تمييز أساسى . فمن سمات الشخصية أنها لا تكبت ذاتها ولا تكتفى بذاتها فى الوقت نفسه . ثمة شيء آخر ضرورى لوجودها ، شيء أعلى منها ، وبغير هذا يكون الشعور بالاختلاف والتميز والتغاير مستحيلا . بيد أن علاقة الشخصية بالآخر ، حتى فى أعلى مستوياته ، ليست هى علاقة الجزء بالكل ، بل إن الشخصية تظل فى هذه العلاقة متكاملة ، ذلك لأن علاقة الجزء بالكل علاقة رياضية ، كما أن علاقة العضو بالجهاز العضوى علاقة بيولوجية . وعلى ذلك فإن العلو لا يعنى أن الشخصية قد أصبحت خاضعة لكل أيًّا كان ، وإنما العلو عملية إيجابية ديناميـة ، هى تجربة الإنسان الباطنة ، التى يجتاز فيها كوارث وأزمات ، ويعبر فيها هوّات وفجوات ، ويعانى فيها نكسات وانكسارات ، ولكنه فى كل هذا يزداد ثراء من الداخل لا من الخارج . فالعلو بالمعنى الوجودى هو الحرية ، كما أنه يفترض الحرية .. هو تحرر الإنسان من عبوديته لنفسه . غير أن الحرية بهذا المعنى ليست أمرًا يسيرًا ، ولكنها أمر شاقّ عسير ، يتم من خلال التناقض الفاجع .

ومشكلة الشخصية تختلف تماماً عن المشكلة المألوفة فى الفلسفة ، ألا وهى علاقة الروح بالجسد . فالشخصية ليست هى بكل تأكيد الروح متميزة عن الجسد الذى يربط الإنسان بحياة الطبيعة . الشخصية هى

صورة الإنسان بأكملها ، والتى يسود فيها المبدأ الروحى على كل قوى الإنسان جسداً ونفساً . ووحدة الشخصية شىء تخلقه الروح . أما الجسد فينتمى إلى صورة الإنسان ، وتلك الثنائية القديمة بين النفس والجسم التى انحدرت إلينا من ديكارت صورة زائفة باطلة . فمثل هذه الثنائية لا وجود لها . وحياة النفس تشيع فى حياة الجسد كلها ، كما أن الحياة الجسدية تؤثر على حياة النفس . فهنالك وحدة حيوية بين النفس والجسم فى الإنسان . أما الثنائية الحقيقية فلا توجد بين النفس والجسم ، وإنما بين الروح والطبيعة ، بين الحرية والضرورة . والشخصية هى انتصار الروح على الطبيعة ، والحرية على الضرورة .

الشخصية بين الفلاسفة

ويقف بردياتف وقفة قصيرة مع تاريخ المشكلة فيقول : إن الفلسفة اليونانية لم تكوّن فكرة واضحة عن الشخصية ، وإنما ظهرت لمحات من الفهم فى الفلسفة الرواقية . وكان هذا سبباً فى ظهور صعوبات كبيرة لدى آباء الكنيسة فى عرض العقيدة المسيحية فى ثوب فلسفى ، ذلك أن فكر هؤلاء الآباء كان يجول داخل مقولات الفكر اليونانى وتصوراته . ومع ذلك فقد كان لا مناص من التعبير عن شىء جديد ، عن تجربة روحية جديدة ، لم يعرفها أفلاطون أو أرسطو أو أفلوطين . ويمكن القول بوجه عام أن إدراك الله بوصفه شخصية قد سبق إدراك الإنسان بوصفه كذلك . وكانت كلمة Persona تعنى « القناع » باللغة اللاتينية ، أى الدور الذى يقوم به ممثل على المسرح ، ولكنها فقدت على مر العصور معناها المسرحى وانتقلت من الاسكلائيين عن طريق الفيلسوف بويثيوس Boetius الذى عرّف الشخصية بأنها الموجود الفردى المتعقل ، وكانت مشكلة الشخصية من المشكلات المعقدة فى الفلسفة الاسكلائية ، فقد ربطت التوماوية (فلسفة القديس توما الأكوينى وأتباعه) بين الفردية وبين المادة : فالمادة — لا الصورة — هى التى تعطى الفردية ، أما الصورة فهى كلية . بيد أن الفلسفة التوماوية توصلت إلى

تلك التفرقة العامة الهامة بين الشخصية والفرد . وتتألف الحقيقة الجوهرية للشخصية عند « ليبنتس » فى الوعي بالذات ، ومعنى ذلك أن صورة الشخصية ترتبط بالوعى . أما « كانت » فقد أحدث تغييرًا هامًا فى فهم الشخصية ، فقد انتقل من التصور العقلى للشخصية إلى التصور الأخلاقى . فالشخصية ترتبط بالتحرر من حتمية الطبيعة ، وهى مستقلة عن آلية (ميكانيزم) الطبيعة . ولهذا السبب ليست الشخصية ظاهرة بين الظواهر ، إنما الشخصية غاية فى ذاتها ، وليست وسيلة لأية غاية ، فهى توجد من خلال نفسها . ومع ذلك فإن نظرية « كانت » فى الشخصية ليست نزعة شخصانية حقيقة ، لأن قيمة الشخصية تتحدد فيها بطبيعتها الأخلاقية العقلية التى تندرج تحت مقولة الكلى .

وعند ماكس شترنر نجد أول نظرية حقيقية فى الشخصية ، على الرغم من بطلان فلسفته ككل — وإن تكن هذه النظرية معروضة فى صورة مشوهة . فهنا يظهر ديالكتيك التوكيد الذاتى للأنا . فالواحد المتفرد عنده لا يمكن أن يكون هو الشخصية ، وذلك لأن الشخصية تختنق فى لاتناهى وكيد الذاتى ، فى عدم استعدادها لمعرفة الآخر ، وعجزها عن مواصلة العلو إلى أقصى مداه . ولكن ثمة لمحة من الحق فى هذا « الواحد المتفرد » ، ذلك لأن الشخصية كون ، كون مصغر « ميكروكوسموس » والعالم كله ملك لها ، وينتمى إليها بمعنى من المعانى .

ويعرّف شيلر Scheler الشخصية بأنها وحدة التجربة ، وبأنها الوحدة

الوجودية لأفعال متباينة . وهنا نجد ربطاً هاماً بين الشخصية والفعل . ولكن ينبغي الاعتراف ، وفي هذا ما يتعارض مع شيلر – أن الشخصية تفترض وجود الشخصيات الأخرى ، والخروج للالتقاء بهم . ولفيلسوف روسي هو نيسميلوف Nyesmyelov أفكار قيمة عن الإنسان ، إذ لا يوجد في نظره غير تناقض واحد في العالم ، وغير لغز واحد فحسب ، هو لغز الشخصية الإنسانية . ففي الشخصية تنعكس صورة الوجود اللا مشروط ، وفي الوقت نفسه توضع الشخصية في ظروف الوجود المحدد . وهذا تناقض بين ما ينبغي أن تكون عليه الشخصية الإنسانية ، وظروف وجودها على الأرض . ويعبر نيسميلوف عن التناقض الذي يتسم به الوجود الإنساني على هذا النحو : الإنسان شيء في العالم الفزيائي ، يحمل بين جوانحه صورة الله . بيد أن الشخصية في الإنسان ليست شيئاً في العالم الفزيائي . والفلسفة الحيوية التي أثرت تأثيراً كبيراً في الفكر المعاصر ، التي لها نظريتها الخاصة عن الإنسان ، لا تحبذ مبدأ الشخصية ، فهي مضادة للنزعة الشخصانية ، إذ تؤدي إلى تذويب الشخصية الإنسانية في العملية الكونية والاجتماعية .

مقولة الفرد :

والحق أننا لكي نفهم الشخصية حق فهمها ، يجب أن نضع تلك التفرقة الهامة بين الشخصية والفرد . وهي تفرقة يلح عليها أصحاب

النزعة التومارية من الفرنسيين ، وإن يكن الأساس الفلسفى الذى يقيمون عليه تفرقتهم مختلفاً عن الأساس الذى يقيم عليه بردياتف نظريته . فالفرد مقولة من مقولات النزعة الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية ، والفرد غير قابل للانقسام بالنسبة لكلٍّ معين ، فهو ذرة . وهو لا يستطيع أن يكون عضوًا فى نوع أو جماعة أو حتى فى الكون ككل فحسب ، بل إنه لا يمكن التفكير فيه أو تصوره إلا بوصفه جزءًا من كلٍّ ، وخارج هذا الكل لا يمكن أن يسمى فردًا .

ويتميز الفرد بأنه جزء تابع لكل من ناحية ، وبأنه جزء يؤكد ذاته بوصفه « أنا » من ناحية أخرى . ومن ثم فإن الفردية — المشتقة من كلمة فرد — لا تعنى بالتأكيد أنها مستقلة فى علاقتها بالكل ، أى فى علاقتها بالعملية الكونية البيولوجية والاجتماعية ، وإنما لا تعنى إلاّ انعزال الجزء التابع فى تمرده الضعيف على الكل . فالفرد يرتبط ارتباطاً وثيقًا بالعالم المادى ، وقد تولّد عن العملية الجنسية ، من أب وأم ، فهو من أصل بيولوجى تحدده الوراثة العائلية ، وكذلك الوراثة الاجتماعية ، فلا وجود لفرد بغير أسرة ، أو أسرة بغير فرد . والفرد موجود داخل مقولات تميز بين ما ينتمى إلى النوع وما ينتمى إلى الفرد . فمن المؤكد أن الإنسان فرد ولكنه ليس فردًا فحسب ، إنه شخصية أيضًا . وفكرة الإنسان ورسالته فى هذا العالم مرتبطان بشخصيته . وهنا يتغير كل شىء ، فليست الشخصية مقولة طبيعية ، ولكنها مقولة روحية ، وليست هى

مالا ينقسم ، أو ذرة فى علاقتها بأى كل مهما كان ، سواء كان كونيًا أو عائليًا أو اجتماعيًا . الشخصية هى الحرية وهى استقلال الفرد فى علاقته بالطبيعة والمجتمع والدولة . وليست الشخصية مجرد توكيد أنانى للذات ، بل هى عكس ذلك تمامًا ، فهى لا تعنى — شأنها فى ذلك شأن النزعة الفردية — انعزالا متمركزًا على الذات Egocentric isolation الشخصية فى الإنسان هى استقلاله فى العالم المادى ، الذى هو المادة لعمل الروح . فالشخصية لا تولد من أسرة ، ومن عملية كونية ، وإنما تصدر عن الله ، وتعلن ظهورها من عالم آخر . وتشهد بهذا أنها نقطة تقاطع عالمين ، وأن فيها ينشب الصراع بين الروح والطبيعة ، بين الحرية والضرورة ، بين الاستقلال والتبعية .

وكل ما هو شخصى فى الإنسان يتنافى مع أى نوع من أنواع الآلية Automatism ، تلك الآلية التى تلعب دورًا كبيرًا فى الحياة الإنسانية ، سواء كانت نفسية أو اجتماعية . ولا يوجد رجلان فى الإنسان الواحد ، بل الرجل الواحد بعينه يكون فردًا ويكون شخصية ، فليسا هما كائنين مختلفين ، وإنما نوعان من الكيفية ، أو هما قوتان مختلفتان فى الإنسان . ويقول بيجى Péguy إن الفرد هو البورجوازى فى الإنسان الذى ينبغى الانتصار عليه . والإنسان — بوصفه فردًا — يعانى تجربة الانعزال ، والانغلاق المتمركز على الذات ، ومن واجبه أن يشن صراعًا من أجل البقاء ، مدافعًا عن نفسه ضد الأخطار المتربصة به . وهو يشق طريقه

خلال الصعوبات التي تعترضه بالتكيف مع المجتمع والامتثال لتعاليمه . أما الإنسان بوصفه شخصية – وهو هو نفس الإنسان – فإنه يتغلب على الانحصار المتمركز على الذات ، ويكشف عن كون كانت تنطوي عليه نفسه ، ولكنه يصر على الاستقلال والاحتفاظ بكرامته فى صلته بالكون المحيط به .

نستطيع أن نقول بمعنى آخر إن للشخصية درجة من الفردية أعلى رتبة من الفرد . وكثيرًا ما تشير كلمة فرد إلى اللا عقلى فى مضاد المشترك والعقلى والمعيارى . وبهذا المعنى تكون الشخصية لا عقلية ، ويكون الفرد أكثر خضوعاً للقانون الملزم ، مادام هو أكثر تحدداً . ومن الطريف أن نلاحظ أنه فى تاريخ الكشف عن معنى الشخصية ، ذهب الرومانسيون إلى التفرقة بين الفردية والشخصية بالمعنى الذى ذهبنا إليه فى هذه التفرقة . وكان الرومانسيون أكثر وضوحاً فى تحديد الفردية منهم فى التعبير عن الشخصية ، وكان للفردية طابع حيوى أكثر منه روحيًا ، ولم يكن ثمة ما يشير إلى انتصار الروح والحرية . كما نلمس انعكاساً لتفكك عميق وانحلال للشخصية فى الرواية المعاصرة ، عند بروست وآندريه بيلى Andrei Byely . فالوحدة الباطنة والتكامل كامنان فى الشخصية ، على حين أن الفرد يمكن أن تمزقه قوى العالم شر ممزق والشخص لا يمكن أن يكون مواطناً كاملا للعالم وللدولة ، لأنه مواطن فى ملكوت الله . ولهذا السبب كانت الشخصية عنصرًا ثوريًا بالمعنى

العميق لهذه الكلمة . وهذا يرتبط بدوره بحقيقة أن الإنسان كائن لا ينتمى إلى عالم واحد ، بل إلى عالمين . ومن ثمّ فإن النزعة الشخصانية فلسفة ثنائية (Daulistic) ، وليست واحدية Monistic .

ويفترض وجود الشخصية وجودَ قيم فائقة على الشخصية Superpersonal . فلا وجود للشخصية الإنسانية إن لم يوجد وجود أعلى منها ، أو إن لم يكن هناك عالم أعلى منها ترتفع إليه . وهنا نقترب من أصعب مشكلات الفلسفة الشخصانية ، وهذه الصعوبة ترتبط بعادات الفكر التى تنشأ عن الطريقة الزائفة لوضع مشكلة النزعة الاسمية والنزعة الواقعية ، فما هى علاقة الشخصية بعالم الموضوعات ؟

الواقع أن الكلى لا يسبق الأشياء Ante rem (وهذه هى الواقعية الأفلاطونية التى تتساوى مع المثالية) كما أنها لا تأتى بعد الأشياء Post rem (النزعة الاسمية التجريبية) ، ولكنها فى الأشياء in rebus . وهذا يعنى بالنسبة للمشكلة التى نحن بصددها الآن أن الكلى يوجد فيما هو فردى ، أعنى فى الشخصية ، لا بوصفه مستمداً من التجربة الكمية ، ولكن بوصفه كيفاً أولياً . فالكلى لا يقوم فى مجال مثالى فائق على الشخص ، ولكن فى الشخصية التى تنتمى للمستوى الوجودى . والكلى وكذلك القيم الفائقة على الشخصية لا تنتسب إلى عالم الموضوعات ، بل إلى عالم الذوات . وليس من شك أن الإحالة الموضوعية للقيم الكلية تمهد الطريق لعبودية الإنسان . فمن الضرورى إذن

أن يقال مثلا إن الكون والجنس البشرى والمجتمع فى الشخصية لا العكس . والكلى ليس هو المشترك ، كما أنه ليس المجرد ، ولكنه العينى ، إنه امتلاء . وهو أقل ما يكون اشتراكاً من حيث إنه ليس وجوداً مستقلا ، وإنما لا يوجد إلاَّ فى كائنات مفردة ، فى الأشياء **in rebus** وفقاً للمصطلح القديم . وليس الفرد جزءًا من الكلى ، ولهذا كان التعارض بين الكلى والمفرد تعارضًا خاطئاً . فليست الشخصية شيئًا جزئيًا خاصًّا يتعارض مع الكلى ، بل الأولى أن يُقال فى كثير من الحق إنّ الشخصية واحدة من الكليات . وقد حاول ليبتس أن يتغلب على النزاع القائم بين الواقعيين والاسميين ، فقال إن الكلى المتجسد فى الفرد يتجاوز التضاد بين الكلى والفردى . وما الكلى إلا مشروع ، محاولة تبذلها الذات ، لا حقيقة واقعة فى الموضوع . فلا وجود لعالم موضوعى من الأفكار . بيد أن هذا لا يعنى بكل تأكيد أن الكلى وأن الأفكار والقيم الكلية ليست إلاَّ ذاتية بالمعنى القديم لهذه الكلمة ، وإنما كل ما نعنيه هو أن الإحالة الموضوعية وتجسيد الأفكار الكلية وسيلة زائفة للتغلب على الذاتية . وليست هذه الوسيلة صعودًا أو علوًّا بالمعنى الصادق لهذه الكلمة .

وعلى هذا النحو نفسه نكون مخطئين إذ قلنا إن الله كلى ، أو إن الله فرد ، ذلك أن التميز بين الكلى والفرد يكمن فى مجال الإحالة الموضوعية ، على حين أنه لا ينبغى التفكير فى الله إلا فى المجال الوجودى ، فى تجربة

العلو والصعود . فليست العلاقة بين الإنسان والله هى علاقة العلة بالمعلول ، أو علاقة الجزئى بالكلى ، أو علاقة الوسيلة بالغاية . فهذه العلاقة بين الله والإنسان لا تماثل شيئاً فى هذا العالم . فالإله لا يوجد كواقع موضوعى أرى أنه ضرورى بالنسبة لى ، أو كإحالة موضوعية لفكرة كلية ، وإنما يوجد كاتصال وجودى ولقاء ، كعملية علو ، وفى هذا اللقاء يكون الله شخصية . وهكذا تحسم مشكلة العلاقة بين الشخصية وبين القيم الفائقة عليها على نحو مختلف تمام الاختلاف .

آفاق الشخصية :

والشخصية لا تستطيع العلو ، ولا تستطيع أن تحقق نفسها ، وتحقق اكتمال حياتها ، إلاّ إذا وجدت القيم الفائقة على الشخصية ، وإلاّ إذا كان الله موجوداً ، وكان ثمة مستوى إلهى للحياة . والفكرة الإنسانية القائلة فى هذا الصدد بأن الشخصية الإنسانية هى الغائية الأسمى ، والتى تنكر وجود الله ، وتزعم أن الإنسان نفسه هو الله ، فكرة سخيفة ، فهى لا تسمو بالإنسان ، بل تحط من شأنه . والواقع أن فكرة الشخصية بالمعنى الذى نذهب إليه تعد مفارقة للفكر العقلى وتتسم بالتناقض الظاهرى Paradox ، فهى تضع الشخص إلى جوار الفائق على الشخصى ، والمتناهى إلى جانب اللا متناهى ، والثابت بمحاذاة المتغير ، والحرية فى مواجهة القدر .

وكما أن الشخصية ليست جزءاً من العالم وإنما متضايف معه ، فكذلك هي متضايف مع الله . الشخصية لا تسمح إلا بعلاقة التضايف ، واللقاء والتواصل . ولا يريد الله أن يقهر الإنسان ، ولكنه يريد شخصية تستجيب لندائه ، ويكون تواصل الحب معها ممكناً . ولكل شخصية عالمها الخاص ، والشخصية الإنسانية هي كل شيء بالقوة ، هي فكر العالم كله بالقوة ، وتاريخ العالم كله بالقوة . وكل ما حدث في هذا العالم يمس شخصيتي ، غير أن هذه الشخصية لا يتحقق في الواقع إلا جزء ضئيل منها ، والشطر الأكبر منها يظل في حالة سبات واحتجاب . وفي الأعماق التي تحتجب وتتوارى عن وعيي ، أغوص في محيط الحياة الصاخب . وعندما أقوم بإخراج المضمون الكلي إلى حيز الواقع ، وحين أكشف عنه في نفسي من خلال المعرفة والحب ، عقلياً وعاطفياً ، لا أعود أبداً مجرد وسيلة تجعل من هذا المضمون الكلي غاية لها . وثمة علاقة معقدة متناقضة بين وعيي وبين شخصيتي ، وفرديتي . فالشخصية تشيد وعيها من أعماق النفس كقاعدة دفاعية ، أو كحد فاصل يحول دون الامتزاج والذوبان ، ولكن من الممكن للوعي أن يحول دون امتلاء شخصيتي بالمضمون الكلي ، وأن يعوق التواصل بالكون ككل . ولكن هناك في الوعي أيضاً ما يعلو على الفردي . فالوعي ينشأ في العلاقة بين الأنا واللا أنا ، وهو يشير إلى خروج من الأنا إلى الأنت في تواصل باطني . وقد يقوم في هذه الحالة بإحالة موضوعية فيمنع عملية

العلو . فالوعى يتسم دائماً بالشقاء ، لأنه من اليسير أن يقع فريسة للوهم نتيجة لقصوره عن الفهم الصادق للعلاقة بين الشخصى والفائق على الشخصى . بل إن تركيب الوعى نفسه مهيأ للسقوط فى براثن العبودية . فمن الضرورى إذن أن نضع نصب إعيننا دائماً الدور المزدوج للوعى فهو يغلق ويفتح فى آن واحد .

الأنانية والشخصية :

وتقوم النزعة الشخصانية بنقل مركز ثقل الشخصية من قيمة المؤسسات الموضوعية كالمجتمع والأمة والدولة ، إلى قيمة الشخصية ، ولكنها تفهم الشخصية بمعنى يتعارض تعارضًا عميقًا مع الأنانية . ذلك أن الأنانية تدمر الشخصية . وانغلاق الذات وانحصارها المتمركز على نفسها ، والعجز عن الخروج عن دائرتها الضيقة هو الخطيئة الأولى ، الخطيئة التى تحول دون التحقيق الكامل لحياة الشخصية ، والتى تمنعها من أن تكون فعالة ذات تأثير . وربما كانت المرأة المصابة بالهستيريا مثلا واضحًا على الأنانية ، فى افتتانها بنفسها ، وطريقتها الشاذة فى إرجاع كل شىء إلى نفسها . ولكنها فى هذا الافتتان والاهتمام بذاتها أبعد ما تكون عن الشخصية ، بل إن أنانيتها هذه معادية للشخصية إلى أقصى حد ، ومدمرة لها تمامًا ، وإنْ تكنْ ذات فردية متميزة . فالشخصية تفترض مسبقاً الخروج من الذات إلى الآخر وإلى الآخرين . فهى تفتقر

إلى الهواء ، ولا تلبث أن تختنق إذا ظلت مغلقة على نفسها . بيد أن خروج الشخصية عن ذاتها لا يعنى فى الوقت نفسه بأى حال من الأحوال ، التخارج Exteriorization أو الإحالة الموضوعية Objectivization . الشخصية هى « أنا » و « أنت » ، « أنا » أخرى . غير أن « الأنت » التى تتجه إليها « الأنا » والتى تدخل معها فى تواصل ليست شيئاً أو موضوعاً ، إنها « أنا » أخرى ، شخصية أخرى . فلا مجال للحديث عن تواصل مع موضوع ، ولا يمكن أن يتم الاتصال بين ذات وموضوع ، ولا يمكن أن يتم بينهما نوع من الالتزام المتبادل . الشخص يحتاج إلى شخص آخر ، بيد أن الآخر ليس خارجياً أجنبياً ، ومن ثمّ فإن علاقة الشخص به لا تعنى التخارج بأية حال من الأحوال . والشخصية توجد فى سلسلة من العلاقات الخارجية مع الآخرين ، وفى أفعال من التواصل معهم . أما العلاقات الخارجية فتعنى الإحالة الموضوعية ، وأما التواصل فيتم على المستوى الوجودى . والعلاقات الخارجية التى تتم فى عالم الإحالة الموضوعية يمكن أن تندرج بوصفها تحديداً ، ومن ثم فإنها لا تحرر الإنسان من العبودية . وأما التواصل ، فنظراً لأنه يتم فى العالم الوجودى ، فإنه ينتمى إلى عالم الحرية ، ويعنى التحرر من العبودية . وتشير الأنانية من جهة أخرى إلى عبودية مزدوجة للإنسان : عبودية لنفسه ، عبودية للذاته المتشددة ، وعبودية للعالم يمارس عليه القهر من الخارج . والإنسان المتمركز على ذاته عبد ، وموقفه

من كل ما ليس « أنا » موقف يتسم بالذل والعبودية . فهو لا يدرك إلا « اللا أنا » ، ولا معرفة لديه بـ « أنا » أخرى ، ولا يدرك « الأنت » ، ولا يعرف شيئاً عن حرية الخروج من « الأنا » . ويحدد الإنسان المتمركز على ذاته علاقته بالعالم وبالآخرين دائماً على نحو يتنافى مع الشخصانية ، وهو مهيأ لاعتناق وجهة نظر السلم الموضوعى للقيم . وثمة شىء ناقص فى إنسانية مثل هذا الشخص المتمركز على ذاته ، فهو يعشق التجريدات التى يغذى بها أنانيته ، ولا يحب الأشخاص الذين هم من لحم ودم

الله والشخصية

ولكى نفهم الشخصية حق الفهم ، لابد أن نتذكر دائما أن الشخصية لا تُعْرف بعلاقتها بالمجتمع أو الكون ، أو بعلاقتها بالعالم الذى تستعبده الموضوعية ، وإنما تعرف أولا وقبل كل شىء بعلاقتها بالله . ومن هذه العلاقة الباطنة المستسرة الحميمة تستمد قوتها لتقيم علاقة حرة بينها وبين العالم وبين الآخرين . ويتوهم الفرد المتمركز على ذاته أنه حر فى علاقته بالعالم الذى هو « لا أنا » بالنسبة إليه . ولكنه فى واقع الأمر يتحدد تحديداً يتسم بالعبودية لعالم « اللا أنا » الذى يغلق عليه داخل نفسه . فالأنانية هى مظهر من مظاهر التحديد بواسطة العالم . وتصبح الشخصية الإنسانية عالماً قائماً بذاته حين لا تقوم بينها وبين العالم علاقة تمركز على الذات . وصفة « الكلية » Universality التى تتصف بها الشخصية والتى تستوعب فى ذاتها عالم الموضوعات ليست توكيداً للذات متمركزة على نفسها ، وإنما هى انفتاح على الحب .

والنزعة الإنسانية لحظة ديالكتيكية فى الكشف عن الشخصية الإنسانية . والواقع أن الخطأ الذى تقع فيه النزعة الإنسانية ليس هو بكل تأكيد أنها تركز تركيزاً شديداً على الإنسان ، وإنما لأنها مسئولة عن حركة التقدم فى الطريق المؤدية صوب الإنسانية الإلهية ، كما يؤكد ذلك

الفكر الديني الروسي في كثير من الأحيان ، ولكن خطؤها الأكبر هو أنها لم تركز تركيزًا كافيًا على الإنسان ، وأنها لم تصل بتوكيدها على الإنسان إلى آخر الشوط ، وأنها لم تضمن للإنسان استقلاله عن العالم ، وأنها كانت تنطوي على خطر استعباد الإنسان للمجتمع والطبيعة . فصورة الشخصية الإنسانية ليست صورة إنسانية فحسب ، إنها صورة الإله أيضاً . وفي هذه الحقيقة تكمن كل ألغاز الإنسان وأسراره ، إنه سر الإنسانية - الإلهية ، المفارقة التي لا يمكن التعبير عنها في صيغة عقلانية . فالشخصية لا تكون شخصية إنسانية إلاّ إذا كانت شخصية - إنسانية - إلهية . وحرية الشخصية الإنسانية واستقلالها عن عالم الموضوعات هو إنسانيتها - الإلهية . وهذا معناه أن الشخصية لا تصاغ بواسطة عالم الموضوعات ، وإنما بواسطة الذاتية التي تحتجب فيها قوة صورة الإله ، أو بتعبير آخر العنصر الإلهي في الإنسان . وكما سبق أن قلنا : للإنسان طبيعتان ، وفيه يتقاطع عالمان . فهو يحمل بين جوانحه صورة الإنسان التي لا تتحقق تحققًا كاملا إلاّ إذا تحقق الجانب الإلهي فيه .

هذه الحقيقة هي حصيلة تجربة وجودية روحية ، لا يمكن التعبير عنها بالتصورات العقلية ، وإنما بالرموز فحسب . فقولنا إن الإنسان ينطوي في ذاته على نفحة إلهية ولا يصبح إنسانًا إلا بتحقيق الجانب الإلهي فيه - هذا القول لا يمكن إلاّ أن يكون رمزًا . فالإنسانية - الإلهية

مفارقة ، لا يستطيع الفكر العقلى هضمها والاعتراف بها ، بل النزعة الإنسانية نفسها لم ترتفع قط إلى درجة نستطيع معها تصور هذه الحقيقة المفارقة عن الإنسانية الإلهية . فالتعبير عن هذا السر يفترض تجربة العلو والتجاوز للذات ، والسقوط فى الهوة ، والخلاص منها . والإلهى هو ما يعلو على الإنسان ، وهو ما يتحد اتحاداً يتسم بالاستمرار والغموض مع الإنسانى فى الصورة الإلهية – الإنسانية . ولهذا السبب وحده يصبح ظهور الشخصية فى عالم لا يستعبدها – ممكناً . فالشخصية إنسانية ، ولكنها تتجاوز الإنسانى التابع للعالم . وهى ساحة الصراع بين الله والعالم . والإنسان نفسه رمز ، لأن فيه علامة على شىء مختلف ، كما أنه علامة على شىء مختلف . وبهذا وحده ترتبط إمكانية تحرير الإنسان من العبودية . وهذا هو الأساس الدينى لمذهب الشخصانية ، ولا أقول الأساس اللاهوتى ، وإنما الدينى ، وأعنى به التجريبى الروحى ، أو الوجودى ، فليست الحقيقة الإنسانية الإلهية صيغة عقائدية ، وليست مذهباً لاهوتياً ، ولكنها حقيقة تجريبية ، وتعبير عن تجربة روحية .

وهذه الحقيقة نفسها عن ازدواج الطبيعة الإنسانية وتكاملها فى آن معًا تنعكس فى علاقة الشخصية الإنسانية بالمجتمع وبالتاريخ ، ولكنها هنا علاقة مقلوبة ، إن صح هذا التعبير . فالشخصية مستقلة عن تحديد المجتمع لها ، ذلك لأن لها عالمها الخاص ، وهى استثناء ، وكائن فريد لا يتكرر . ولكنها فى الوقت نفسه اجتماعية ، وفيها آثار ورواسب من

اللاوعي الجماعي ، فهو مخرج الإنسان من العزلة . والشخصية تنتسب إلى التاريخ ، وتحقق نفسها فى المجتمع والتاريخ . الشخصية تواصلية ، وهى تفترض مسبقًا التواصل مع الآخرين ، والتعاطف معهم . والتناقض العميق ، والصعوبة التى تعترض الحياة الإنسانية مرجعها إلى هذه السمة الجماعية التواصلية . والعبودية تقف للإنسان بالمرصاد ، وهو بسبيله إلى تحقيق ذاته ، ولهذا ينبغى على الإنسان دائمًا أن يثوب ويثوب إلى الجانب الإلهى فيه .

وحتى الحياة الدينية للإنسان تتعرض لهذا الخطر ، خطر الإحالة الموضوعية . فمن الممكن أن يُقال بمعنى ما إن الدين اجتماعى بوجه عام ، أعنى أنه صلة اجتماعية . بيد أن هذا الطابع الاجتماعى للدين يشوه الروح ، ويُخضِع اللا متناهى للمتناهى ، ويجعل النسبى مطلقًا ، ويبعد الإنسان عن منابع الوعى ، وعن معاناة التجربة الروحية ، ففى عالم الباطن ، تكتشف الشخصية صورتها من خلال كشفها عن الجانب الإلهى فيها ، من خلال نفاذ الإلهى فى الإنسانى . وفى العالم الخارجى يشير الكشف عن الحقيقة إلى تبعية العالم والمجتمع والتاريخ لصورة الشخصية ، إنه نفاذ الشخصية فى العالم الموضوعى ، وهذه هى النزعة الشخصانية . فمن الداخل ، تمنح الشخصية القوة وتتحرر بواسطة إنسانيتها الإلهية . وفى الخارج ، يتحول العالم والتاريخ والمجتمع ويتحرر عن طريق الإنسانية ، ومن خلال تفوق الشخصية . والتواصلية تنتقل

من الداخل إلى الخارج ، ولكن هذه الحركة ليست إحالة موضوعية ، لأنها لا تخضع الشخصية للموضوعية . الشخصية ينبغي أن تكون إنسانية — إلهية ، على حين أن المجتمع ينبغي أن يكون إنسانياً .

والحرية ليست حقاً من حقوق الإنسان ، فهذه نظرة سطحية ، إنما حرية الشخصية واجب ، إنها إنجاز رسالة ، وتحقيق الفكرة الإلهية للإنسان ، وتلبية للنداء الإلهي . ينبغي على الإنسان أن يكون حراً ، ولا عذر له في أن يكون عبداً ، لأن من واجبه أن يكون إنساناً . هذه هي إرادة الله . ومن الناس من يعشق العبودية ، ويقدم من الحجج والذرائع ما يجعل من الحرية حقاً ، وهذه دعوى تتخذ أشكالا مختلفة حيناً بعد حين . فالعبودية هي التي يريدها الإنسان أن تكون حقاً ، لا الحرية . فلا ينبغي إذن أن تكون الحرية ضمن إعلان حقوق الإنسان ، بل ينبغي أن تكون ضمن إعلان التزاماته ، وواجبه في أن يكون شخصية . فليس من حق الإنسان ولا من واجبه أن يرفض الشخصية . يستطيع الإنسان أن يرفض الحياة ، بل يجب عليه أحياناً أن يرفضها ، ولكن لا ينبغي أن يرفض الشخصية ، وكرامة الإنسان ، والحرية التي ترتبط بهذه الشخصية .

الشخصية والزهد :

والشخصية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوعي الرسالة . وعلى كل إنسان أن

يكون واعيًا بهذه الرسالة ، وهى رسالة مستقلة عن المواهب الممنوحة لـه . فهى رسالة له صورة فردية لا تتكرر للاستجابة لنداء الله ، ولاستخدام مواهب المرء استخدامًا خلاقًا . والشخصية التى هى فى وعى بنفسها تستمع إلى ذلك الصوت الداخلى وتطيعه هو وحده . فهى لا تذعن للأصوات الخارجية . وأعظم الرجال هم أولئك الذين استمعوا إلى الصوت الداخلى ، ورفضوا أن يسايروا العالم حيثما يسير . وترتبط الشخصية أيضًا بالزهد ، بل تفترض الزهد مسبقًا ، أعنى الرياضة الروحية ، وتركيز القوى الباطنة ، وانعقاد العزم ، ورفض الاستسلام لخليط القوى اللا شخصية ، سواء كانت داخل الإنسان أو فى الكون المحيط به . وليس معنى هذا قبول الأشكال التقليدية للزهد ، فإن منها الكثير الذى يتنافى مع الدين ، بل منها ما هو ضار بالشخصية نفسها . فالزهد ينبغى أن يكون فى جوهره المحافظة على أشكال الشخصية ، على صورتها ، ومقاومة سطوة العالم التى تريد تمزيق الشخصية واستعبادها مقاومة إيجابية . الزهد هو كفاح الشخصية ضد العبودية ، فهو مقبول بهذا المعنى وحده . ولكن ، حين يتحول الزهد إلى عبودية ، وهذا ما حدث كثيرًا فى أشكاله التاريخية ، فينبغى رفضه ومحاربته ، والدعوة إلى الزهد الحقيقى . وهذا الزهد الحقيقى ليس هو الخضوع والإذعان ، بل إنه رفض الشخصية للخضوع والإذعان ، فهو تحقيق رسالتها ، واستجابتها لنداء الله . والشخصية فى جوهرها ليست خاضعة أو مذعنة ، إنها

المقاومة ، والفعل الخلاق الذى لا ينكسر. والزهد المرتبط بالشخصية هو المبدأ البطولى فى الإنسان ، أما الزهد المستكين الذليل فهو مهانة ومسبة . والشخصية تفترض الزهد القادر على الاختيار والمقاومة ، مقاومة شهوات النفس وشهوات العالم .

القلق والخوف

ولا وجود للشخصية إذا لم يوجد المتعالى . فالشخصية تقف وجها لوجه إزاء المتعالى ، وفى تحقيقها لنفسها فإنها تعلو وتتجاوز ، ولهذا كان الشعور بالقلق ملازماً للشخصية من حيث هى كذلك ، أى من حيث أنها علو وتجاوز . فالإنسان يشعر بأنه كائن معلق فوق هوة ، وفى خروج الإنسان بوصفه شخصية عن تيار الوجود البدائى الجماعى – يبلغ هذا الشعور بالقلق أعلى درجاته من الحدة والشدة .

ولابد من التمييز بين القلق (Angst) والخوف (Furcht) . وقد قام كيركجورد بهذا خير قيام ، فهو يقول إن للخوف أسبابه وعلله ، فهو مرتبط بالخطر ، وبتجارب الحياة اليومية ، أما القلق فشعور آخر نعانيه لا فى وجه الأخطار اليومية ، وإنما فى مواجهة سر الوجود والعدم ، وعندما نقف إزاء هوة المتعالى ، وحيال المجهول . فالموت لا يثير شعور الخوف فحسب من حادثة تقع دائماً فى عالم كل يوم ، وإنما يثير القلق أيضًا فى مواجهة المتعالى . الخوف يرتبط بالهم ، وبالخشية من الألم وضربات القدر . والخوف يفشل فى أن يضع نصب أعيننا ذلك العالم المتعالى الأسمى ، فهو مرتبط بعالم أدنى ومستوى أدنى ، وهو مقيد بما هو

تجريبى . أما القلق ، فيقع على شفا المتعالى ، حين يواجه الإنسان الأبدية ، وحين يلتقى هو والمصير وجهاً لوجه .

القلق والحنين :

والإنسان كائن لا يعانى الخوف والقلق وحدهما ، بل يشعر أيضاً بالحنين . والحنين أقرب إلى القلق منه إلى الخوف ، ولكنه يتميز بماهيته الخاصة . فنحن لا نشعر به حين نجتاز خطرًا ما ، كما أنه لا يرتبط بالهم ، بل يعمل على التخفيف منه . الحنين يتجه إلى أعلى ، وهو علامة على طبيعة الإنسان الأسمى . وقد كتب على الإنسان أن يعانى فى حياته الشعور بالوحدة والاغتراب فى هذا العالم . وليس هناك ما هو أشد إيلامًا للنفس من الشعور بالغربة وبغرابة كل شىء فى هذا العالم . وحين تتحرك الشخصية فى طريق نموها وتطورها ، فإنها تعانى هذه التجربة . وثمة شىء من المتعالى فى الشعور بالحنين ، وذلك بمعنى مزدوج ، فالشخصية تجتاز اختبارات التجربة بوصفها كائناً متعالياً غريباً فى هذا العالم ، وهى تجتاز الهوة التى تفصلها عن العالم الأسمى ، عن ذلك العالم الآخر الذى ينبغى أن يكون وطناً لها ومنزلا . والحنين الحاد شىء يمكن أن نشعر به فى أسعد لحظات حياتنا . فهناك فى أعماق أعماق الإنسان يستقر الحنين إلى الحياة الإلهية ، إلى النقاء ، إلى الفردوس ، وأسعد لحظات الحياة لا يمكن أن تشبع هذا الحنين . ولهذا لا يمكن أن يكون للشخصية وجود إلا

ويصاحبه هذا الحنين ، لأن الحنين يؤذن بالقطيعة مع هذا العالم الذى ولد فيه الإنسان ، وباستحالة التكيف معه .

وتنسحق الشخصية فى ذاتيتها اللا متناهية بين الموضوعي والمتعالى ، بين عملية الإحالة الموضوعية وعملية الصعود والعلو ، فالشخصية لا تستطيع أن تتصالح مع عالم الموضوعات اليومىّ الذى قذفت فيه . فنحن نجد الشخصية فى تلك القطيعة وذلك الخصام بين الذاتى والموضوعى . ومن الممكن أن تشعر الشخصية بتضخم ذاتيتها دون أن تنتقل بحركة العلو إلى عالم آخر ، وهذه هى المرحلة الرومانسية . فالحنين يشير دائماً إلى شيء ناقص ، ويتجه إلى اكتمال الحياة . وهناك حنين طاغ معذب إلى الجنس . والجنس حنين ، وهذا الحنين لا يمكن التغلب عليه نهائياً فى العالم اليومى الموضوعى ، لأن الاكتمال النهائى فى هذا العالم أمر يستحيل بلوغه ، هذا الاكتمال الذى يتطلبه الخروج من ذاتية الجنس .

الشخصية والموت :

ويعانى الإنسان أشد أنواع القلق عندما يواجه الموت . وهناك حنين إلى الموت . والإنسان كائن يعيش فى حالة احتضار ، احتضار فى أثناء الحياة نفسها . ولا يكون الموت شيئاً فاجعاً إلا بالنسبة للشخصية ، فهذه المأساة لا وجود لها بالنسبة لكل ما هو لا شخصى . كل شيء فان فى الطبيعة ، ولا محيد له عن الموت ، أما الشخصية فخالدة ، هى الشيء

الوحيد الخالد فى هذا الكون ، لأنها خلقت للخلود والأبدية . والموت هو المفارقة الكبرى فى مصير الشخصية . فالشخصية لا يمكن أن تتحول إلى شيء ، وهذا التحول للإنسان إلى شيء نسميه الموت ، لا يمكن أن يمتد ليشمل الشخصية . الموت هو تجربة الشخصية فى قطيعتها مع مصيرها ، إنه انقطاع فى الاتصال مع العالم . الموت لا يضع نهاية للوجود الباطنى للشخصية ، وإنما يضع نهاية لوجود العالم ، فلا فرق بين اختفائى عن العالم ، واختفاء العالم عنى . ومأساة الموت هى قبل كل شيء مأساة الفراق . بيد أن الصلة بالموت مزدوجة ، فإن لها معنى إيجابياً للشخصية ، ذلك أن اكتمال حياة الشخصية لا يمكن أن يتم فى هذه الحياة ، فى هذا العالم الموضوعى ، ووجود الشخصية فيه وجود جزئى ناقص ، وتقدم الشخصية صوب اكتمال الأبدية يفترض الموت ، واجتياز الهوة . وعلى هذا ، لا يمكن أن نتحاشى الشعور بالحنين فى وجود الشخصية ، كما لا نستطيع أن نتفادى القلق فى مواجهة الأبدية المتعالية .

الشخصية والحب

والشخصية ترتبط بالحب . الشخصية هى الكائن الذى يحب ويكره ، الكائن الذى يعرف الحب (إيروس) Eros والبغض Anti eros . ولا وجود للشخصية دون عاطفة قوية ، كما لا توجد عبقرية بلا عاطفة شديدة . والحب هو السبيل إلى تحقيق الشخصية ، وهنالك نوعان من الحب ، حب صاعد وحب هابط ، الحب الذى هو « إيروس » والحب الذى هو « شهوة » (Agape) . وكل منهما فطرى فى الشخصية ، وفى الصعود والهبوط تتحقق الشخصية . وقد كانت تعاليم أفلاطون تدور حول الحب الصاعد الذى هو « إيروس » . و « الايروس » الأفلاطونى ، ابن الثراء والفقر ، هو صعود من عالم الحواس المتعدد إلى عالم المثل الواحد الفريد . وليس « الايروس » هو حب كائن عينى ملموس ، وإنما هو حب الجمال والخير الأسمى ، والكمال الإلهى . حب « الإيروس » هو الجاذبية التى تحدثها الأعالى ، حركة إلى أعلى ، صعود ، هو اكتمال الموجود الناقص ، هو إثراء الكائن الفقير المعدم . وهذا العنصر هو العامل الحاسم فى حب رجل أو امرأة ، ولكنه يمتزج بعناصر . فالجنس نقص وقصور ، وهو يثير فينا الحنين إلى الاكتمال ، وإلى حركة نحو الكمال والتمام لا نبلغ نهايتها أبدًا .

ومأساة الحب أنه مرتبط بالصراع بين حب كائن عيني متجسد ينتمي إلى عالم الحس ، وحب الجمال الذى ينتمى إلى عالم المثل . فما من كائن حي يمكن أن يناظر ما فى عالم المثل من جمال بالمعنى الأفلاطونى . ومن ثمَّ ، فإن الحب بوصفه « إيروس » ، الحب بوصفه صعوداً ووجداً ، يجب أن يتّحد بالحب بوصفه هبوطاً ، الحب بوصفه شفقة وتعاطفاً . والحب بوصفه « إيروس » موجود فى كل حب انتقائى Selective فهو فى حب الصديق ، وفى حب الوطن ، بل فى حب القيم المثالية فى الفلسفة والفن . وهو موجود فى الحياة الدينية أيضاً . والحب الذى هو « إيروس » يقتضى التبادل ، أما الحب الذى هو شفقة فلا حاجة به إلى التبادل ، وفى هذا سرقوه « الايروس » وثراثه ، فهو يرى صورة « الآخر » ، صورة المحبوب فى الله ، بوصفه فكرة الإله عن الإنسان ، إنه يشهد جمال المحبوب ، أما الحب الذى هو عطف وشفقة فيرى « الآخر » مهجوراً من الله ، غارقاً فى ظلمة العالم ، فى العذاب والألم والقبح .

وللفيلسوف ماكس شيلر أفكار طريفة عن الفرق بين الحب المسيحى والحب الأفلاطونى ، بين الحب المتجه إلى شخصية محسوسة ، والحب المتجه نحو فكرة أو مثل أعلى . غير أننا نرى أن الأفلاطونية قد تغلغلت فى المسيحية . فمشكلة الشخصية لم تنشأ بالنسبة للأفلاطونية و « الايروس » الأفلاطونى ، ولكن المسيحية وضعت هذه المشكلة ، وإن يكن الفكر

المسيحى والطقوس المسيحية قد طمسا هذه المشكلة بتفسيرها اللا شخصى للحب ، سواء بوصفه « إيروس » أو بوصفه « إحساناً » Caritas . فإن لا شخصانية « الايروس » الأفلاطونى قد انتقلت إلى التفسير اللا شخصى للإحسان المسيحى . بيد أن الكشف عن الطبيعة الجوهرية للحب يؤدى بالضرورة إلى تفسيره بوصفه حركة تتجه من شخصية إلى شخصية . أما « الايروس » اللا شخصى فيتجه إلى الجمال والكمال بدلا من أن يتجه إلى كائن ملموس ، وإلى شخصية لا تتكرر . والحب اللا شخصى الذى هو شفقة ، حب الإحسان ، يتجه إلى جار لا شخصى ، جار يتألم وفى حاجة إلى العون . هذه هى شريحة الحب التى نجدها فى العالم اللا شخصى الأعلى والعالم اللا شخصى الأدنى ، فى عالم المثل اللا شخصى ، وفى عالم العذاب والظلمة اللا شخصى أيضاً .

أما الحب الذى يرتفع فوق عالم « المشترك » و « اللا شخصى » فهو الحب الذى يتجه إلى صورة الشخصية ، وهو تأكيد لهذه الصورة حتى الأبدية ، وتأكيد حتى الأبدية لتواصله مع هذه الصورة .

انتصار الشخصية

والوعى بالشخصية فى مواجهة العالم يرتبط ارتباطاً عميقاً بوجود الشر. فالشخصية تكتسب القوة فى مقاومتها لسلطان الشر فى العالم الذى يتبلور دائماً فى صورة اجتماعية. والشخصية اختيار، والاختيار صراع، ومقاومة لقوة العالم التى تنحو إلى استعباد الفرد. وتتشكل الشخصية فى اصطدامها بالشر فى نفسها وفى البيئة المحيطة بها. ومن مفارقات الشخصية أن الوعى الحاد بها يفترض وقوع الخطيئة والذنب. وانعدام الإحساس بالخطيئة والذنب والشر هو أيضاً انعدام الإحساس بالشخصية، وهو ذوبان للشخصية فى المشترك والكونى والاجتماعى. وارتباط الشر بالشخصية وبالخطيئة والذنب يؤدى إلى تشخيص الشر، وإلى خلق صورة لشخصية تكون تجسيداً كلياً للشر. ولكن هذا النوع من تجسيد الشر له جانبه المضاد فى إضعاف الإحساس بالذنب الشخصى والمسئولية الشخصية. وهنا يكمن ما يكتنف المشكلة من تعقيد. وهذه المشكلة نفسها تكمن فى موقف الفرد من الشر. فما من إنسان يمكن أن يكون تجسيداً وتشخيصاً للشر، لأن الشر فيه جزئى دائماً. ولهذا السبب لا يمكن أن نصدر حكماً نهائياً على أى إنسان. وهذا ما يضع أيضاً حدوداً على مبدأ العقوبة، فربما اقترف الإنسان جريمة، بيد أن الإنسان

فى مجموع شخصيته لا يمكن أن يكون مجرماً . ولا ينبغى معاملته على أنه تجسيد للجريمة ، فمازال شخصية ، ومازال فيه الجانب الإلّهى . ولهذا السبب فإن النزعة الشخصانية تعارض معارضة جذرية وأساسية الحكم بالإعدام .

ولا يمكن أن تتحول الشخصية كلها إلى كائن اجتماعى فحسب ، فإن الإحالة الاجتماعية للإنسان لا يمكن أن تكون إلاّ جزئية ، ولا يمكن أن تمتد إلى أعماق الشخصية ، إلى ضميرها ، وإلى علاقتها بمنبع الحياة . والإحالة الاجتماعية التى تمتد إلى أعماق الوجود ، وإلى الحياة الروحية ، هى انتصار « للناس » وللروتين الاجتماعى . إنها طغيان المتوسط والمشترك على الفرد الشخصى . وعلى هذا ينبغى أن يقوم مبدأ الشخصية كمبدأ من مبادئ التنظيم ، بحيث لا يسمح بالإحالة الاجتماعية لوجود الإنسان الباطنى .

إن سيادة الشخصية وانتصارها أمر مأساوى فاجع بالنسبة للإنسان ، ذلك لأنه يضم بين جوانحه اللا شخصى أيضاً ، وهذا اللا شخصى فيه يثور على هذه الحقيقة ، وهى أن تحقيق الشخصية لا يكون ممكناً إلا من خلال التناقض والتمزق . والإحالة الموضوعية هى مصدر العبودية ، فهى دائماً تنظيم للسيطرة ، وهذا مما يتنافى مع كرامة الشخصية . وفى هذه الإحالة ، وفى التخارج ، وفى تشويه الطبيعة الإنسانية ، يقع الإنسان فريسة لإرادة القوة ، والمال ، والتعطش للملذات والمجد .... الخ ،

وهي كلها أشياء مدمرة للشخصية . وعلى العكس من ذلك ، تحقق الشخصية وجودها ومصيرها في المتناقضات ، وفي الجمع بين المتناهي واللا متناهي ، وبين النسبي والمطلق ، وبين الواحد والكثير ، وبين الحرية والضرورة ، وبين الباطن والظاهر . فليست هناك وحدة أو تطابق بين الباطن والظاهر ، بين الذاتي والموضوعي ، وإنما هناك افتقار فاجع في التجاوب وصراع أليم . بيد أن بلوغ الوحدة والكلية لا يتم في الموضوعية اللامتناهية ، وإنما في الذاتية اللامتناهية ، الذاتية التي تعلو على نفسها .

محتويات الكتاب

صدر من هذه السلسلة :

١ — طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ — الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ — شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ — أسس التفكير العلمى	د . زكى نجيب محمود
٥ — عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ — تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ — الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ — حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ — علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ — المسرح الملحمى	د . عبد الغفار مكاوى
١١ — تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ — شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ — الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ — البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٤م — عيون تكشف المجهول	د . محمد عبد الهادى
١٥ — الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ — أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ — المساواة فى الإسلام	د . محمد بديع شريف
١٨ — القصة القصيرة	د . سيد حامد النساج
١٩ — عالم النبات	د . مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ — العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ — السينما فن	صلاح أبو سيف

٢٢ – فواصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربي وتاريخه	د. أحمد الحوفي
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د. سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د. إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د. علي حسني الخربوطلي
٢٨ – علم الاجتماع	د. فاروق محمد العادلي
٢٨م– روح مصر في قصص السباعي	حسن محسب
٢٩ – القصة في الشعر العربي	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د. كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوي	د. يوسف عبد المجيد فايد
٣١أ– محمود حسن إسماعيل	د. عبد العزيز الدسوقي
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغني حسن
٣٣ – الخلق الفني	د. مصري عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيري المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصي
٣٥ – التراث العربي	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة إلى الإيمان	أحمد حسن الباقوري
٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د. خليل صابات
٣٨ – يوميات طبيب في الأرياف	د. الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندي
٤١ – ثقافة الطفل العربي	جمال أبو رية
٤٢ – اللغة الفارسية	د. محمد نور الدين عبد المنعم
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د. عبد المنعم النمر

٤٤ — الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلي
٤٥ — التعريف بالاقتصاد	د . حسين عمر
٤٦ — المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ — بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ — الفلسفة والحقيقة	د . عبد الحليم محمود
٤٩ — الطب النفسي	د . عادل صادق
٥٠ — كيف نفهم اليهود	د . حسين مؤنس
٥١ — الفن الإذاعي	د . فوزية فهيم
٥٢ — الكتابة العربية	محمد شوقي أمين
٥٣ — مرض السكر	د . أحمد غريب
٥٤ — شوقي أمير الشعراء ... لماذا ؟	فتحي سعيد
٥٥ — الفلسفة الإسلامية	د . أحمد عاطف العراقي
٥٦ — الشعر في المعركة	حسن النجار
٥٧ — طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ — الإعلام ولغة الحضارة	د . عبد العزيز شرف
٥٩ — تاجور شاعر الحب والحكمة	علي شلش
٦٠ — كوكب الأرض	د . فرخندة حسن
٦١ — السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ — التصوف عند الفرس	د . إبراهيم شتا
٦٣ — الرومانسية في الأدب الفرنسي	د . أمال فريد
٦٤ — القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف
٦٥ — التعبيرية في الفن التشكيلي	د . نعيم عطية
٦٦ — ميراث الفقراء	فؤاد شاكر
٦٧ — العمارة والبيئة	المهندس حسن فتحي

٦٨ – قادة الفكر الاقتصادى	د . صلاح نامق
٦٩ – المسرح الغنائى العربى	محمود كامل
٧٠ – الله أم الطبيعة	د . يوسف عز الدين عيسى
٧١ – بحر الهواء الذى نعيش فيه	د . مدحت إسلام
٧٢ – الأدب الفرنسى فى عصر النهضة	د . رجاء ياقوت
٧٣ – الحرب ضد التلوث	رجب سعد السيد
٧٤ – القصة والمجتمع	يوسف الشارونى
٧٥ – المنتظرون الثلاثة	عبد الله الكبير
٧٥م – محمود أبو الوفا	فتحى سعيد
٧٦ – العسكرية الإسلامية	لواء / جمال الدين محفوظ
٧٧ – النفايات الذرية	د . محمد عبد الله بيومى
٧٨ – الإعلام والنقد الفنى	د . أحمد المغازى
٧٩ – المسرح الأمريكى	د . عبد العزيز حمودة
٨٠ – زحف الصحراء	د . محمد فتحى عوض الله
٨١ – مشاكل الطفل النفسية	د . كلير فهيم
٨٢ – الأدب التركى	د . حسين مجيب المصرى
٨٣ – مضادات الحيوية	د . محمد صادق صبور
٨٤ – الرواية الإنجليزية	د . إنجيل بطرس
٨٥ – الضحك فلسفة وفن	جلال العشرى
٨٦ – الاستثمارات الأجنبية	د . عبد الواحد الفار
٨٧ – لغتنا الجميلة	فاروق شوشة
٨٨ – الحرب عند العرب	د . عبد الرحمن زكى
٨٩ – لئلا نحترف البكاء	نشأت التغلبى
٩٠ – الإسلام وروح العصر	د . حسين فوزى النجار

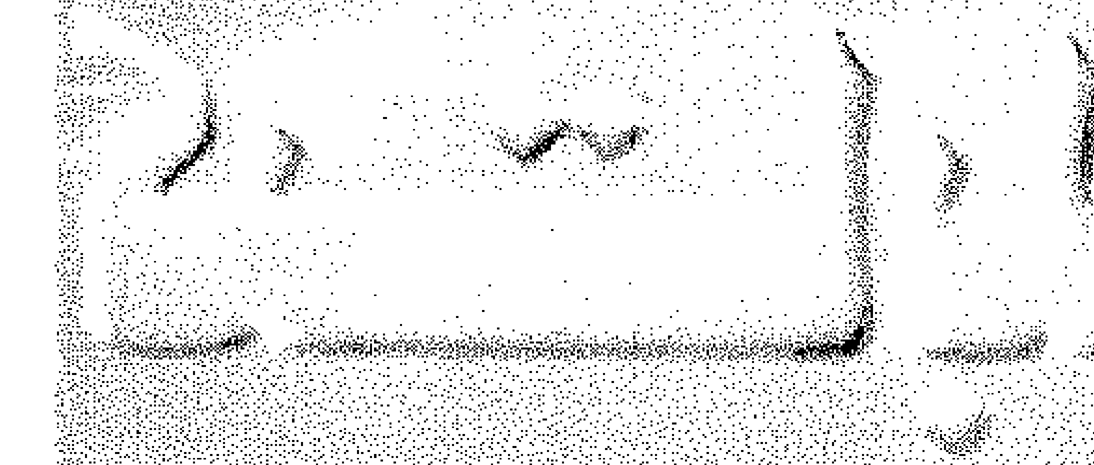
٩١ – التراث الشعبي	د. عبد الحميد يونس
٩٢ – علم المنطق	د. محمد مهران
٩٣ – القلب وتصلب الشرايين	د. رجب عبد السلام
٩٤ – فن الخزف	سعد الخادم
٩٥ – الإعجاز القرآني	د. محمد أحمد العزب
٩٦ – سفراء النبي	د. مختار الوكيل
٩٧ – ساعة مع القرآن العظيم	د. عبد العظيم المطعني
٩٨ – لغة الصحافة المعاصرة	د. محمد حسن عبد العزيز
٩٩ – الكيمياء الصناعية	د. محمد الخلوجي
١٠٠ – الدراما الأفريقية	على شلش
١٠١ – وكالات الأنباء	شفيق عبد اللطيف
١٠٢ – الحدوتة والحكاية الشعبية	محمد فهمي عبد اللطيف
١٠٣ – ألف باء السياسة	د. أحمد حمدى محمود
١٠٤ – تطور الشعر في الغناء العربي	غطاس عبد الملك
١٠٥ – الحرب الإلكترونية	عبده مباشر
١٠٦ – البطل في القصة المصرية	حسن محسب
١٠٧ – عجائب الحشرات	د. محمد طلعت الأبراشي
١٠٨ – الإذاعة خارج الحدود	أنور شتا
١٠٨م – مصر الخضراء	د. فاروق الباز
١٠٩ – القانون الطبيعي وقواعد العدالة	عبد السميع المراوى
١١٠ – فن التصوير السينمائي	أحمد الحضري
١١١ – الطاقة	د. محمد فتحي عوض الله
١١٢ – الفن والمرأة	شريفة فتحي
١١٣ – نظام الحكم في الإسلام	د. مصطفى كمال وصفي

١١٤ – رحلتى مع الرواية — فتحى أبو الفضل
١١٥ – التطـــور — د. منى فريد
١١٦ – الأدب والمواطن — عباس خضر
١١٧ – آفاق جديدة فى التعليم — د. طلعت حسن
١١٨ – الفن القبطى — د. باهور لبيب
١١٩ – اجتماعيات التنمية — د. محمود الكردى
١٢٠ – المسرح الشامل — أحمد زكى
١٢١ – رسائل إخوان الصفا — د. على السكرى
١٢٢ – الرمزية الصوفية فى القرآن — د. سيد عبد التواب
١٢٣ – الحب فى الشعر الفارسى — د. عفاف زيدان
١٢٤ – الإنسان والعـــلم — د. عبد العزيز أمين
١٢٥ – نظرات فى القصة القصيرة — حسين القبانى
١٢٦ – الفراعنة أساطين الطب — محمد عبد الحميد بسيونى
١٢٧ – كهـف الحكيم — فتحى العشرى
١٢٨ – فنون الزجل — محمد قنديل البقلى
١٢٩ – للألبان فلسفة وأسرار — د. مصطفى الديوانى
١٢٩م – رعاية الطفل المعوق — عبد التواب يوسف
١٣٠ – الدراما اليونانية — كمال ممدوح حمدى
١٣١ – الأسرة فى الدين والحياة — المستشار محمد عبد الفتاح الشهاوى
١٣٢ – الأدب والحضارة — د. نهاد أحمد فؤاد
١٣٣ – الجراحة علم وفن — د. عوض الدحة
١٣٤ – علم النفس والجريمة — المستشار محمد فتحى
١٣٥ – فن المقال الصحفى — د. عبد العزيز شرف
١٣٦ – الاخراج السينمائى — د فاروق الرشيدى

رقم الإيداع	١٩٨١/٣٩٥٨
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٤٩-٨٣-١

١/٨١/٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هــذا الكتــاب

الإنسان هو الكائن الذي يتجاوز ذاته ويعلو على نفسه ، وتحقيق الشخصية للإنسان هو هذا العلو المستمر على الذات . فالإنسان ينزع دائما إلى الخروج من دائرة الذاتية المغلقة

وهذا البحث يدور حول حرية الإنسان ومحاولته الخروج من دائرة ذاتيته الضيقة متجها صوب التفوق على نفسه وتحقيق شخصيته .

